

نسرين مغربي*

الشاعر المحارب أو الشاعر الجندي

عيدو بسوك. "شكوك وغراميات: يهودا
عميحاى - سيرة حياة" (بالعبرية). تل أبيب:
دار شوكن للنشر، ٢٠١٩. ٤٨٥ صفحة.

تُظهر سيرة حياة الشاعر العبري يهودا عميحاى (١٩٢٤-٢٠٠٠)، والذي يُعتبر الشاعر القومي لإسرائيل، ازدواجية وتناقضاً في مواقفه بين ميوله الإلحادية وتمسّكه بالدين في وقت واحد، وتمجيده لحروب إسرائيل، وفي المقابل أسفه على الضحايا التي تقع جِراء الحروب. مؤلف السيرة التي صدرت في كتاب في سنة ٢٠١٩، هو عيدو بسوك الذي رافق الشاعر منذ طفولته في ألمانيا، ثم هجرته إلى فلسطين في عمر ١٢ عاماً، ومشاركته في حروب إسرائيل. وقد تتبّع حياته العاطفية ومن مر من النساء في حياته، فضلاً عن مواقفه السياسية، وصعود نجمه كشاعر، والكيفية التي تُقبّل بها شعره في بداياته، وصولاً إلى تتويجه شاعراً قومياً والمكانة العالمية التي بلغها. يروي كاتب السيرة أن الشاعر قال يوماً أنه كان محبوباً، وإن كثيرين في المجتمع الإسرائيلي يُجمعون عليه، حتى أولئك الذين لا يقرأون الشعر (ص ٣١٠)، وأنه في شبابه كان يراوده إحساس بأنه خُلق ليكون شاعراً في اليبشوف، ثم في الدولة الوليدة، لأن الشعر جزء من الحاجات الأولية لأفراد الشعب، فهو المعبر عن أفراحهم، والمخفف عن آلامهم نتيجة حالات الثكل المترتبة على الحروب المتواصلة (ص ٤٤ - ٤٥).

أتوقف فيما يلي عند موضوعين لافتين: الأول هو موقف عميحاى من الدين، والثاني موقفه من حروب إسرائيل.

في الموضوع الأول نراه مبهماً حتى إنه يصف نفسه بأنه "عميل مزدوج". فقد كان علمانياً لكنه كان يشعر بوجود الرب، ولم يكن قادراً على التنازل عن هذا الوجود النفسي داخله، لأنه إن تخلى عنه فسيختل عن أمر أساسي في إنسانيته (ص ٢٥٩). واعتبر العبادات الدينية بطقوسها أساساً للتفكير البلاغي -

* كاتبة فلسطينية مقيمة في عكا.

الرمزي لديه، وكان يشعر بالأسف لأنه لا يستطيع أن ينقل إلى أبنائه المخزون الثقافي الذي تلقاه من أبويه المتدينين (ص ٢٨ - ٢٩). وفي مقابلة أجريت معه في سنة ١٩٨٥ قال أنه ينصح أي طفل يرغب في أن يصبح شاعراً بأن يتربى في بيت متشددين دينياً أو بيت شيوعي؛ بمعنى أن يكون تحت وصاية دين يستحوذ على كيان أبويه، ليتمكن بعدها من التمرد على هذا الدين، لكن يبقى محتفظاً بكنوزه (ص ٢٩). وعندما سُئل الأديب منير شاليف عن ماهية البصمة التي تركها عميحي في الثقافة الإسرائيلية قال: إنها التوراة. فقد كان عميحي، في رأيه، مفسراً للتوراة كأبي مفسر حقيقي معتمد، وكان يقدم وجهات نظر "مدهشة" (ص ٣١١). أما بالنسبة إلى شعبيته فيقول كاتب السيرة إنه كان مقبولاً من جميع أطراف الشعب الإسرائيلي: فالعلمانيون رأوا فيه حامل لواء الليبرالية وروياً "العيش السوي"، بينما رآه المتدينون شاعراً يدير حواراً مع عوالم الفكر اليهودية، بل اعتبروا أن حتى إلحاده الصارخ عادي جداً، ولا يتجاوز كثيراً الحدود المشروعة لتدبر شؤون الخالق (ص ٣١٠). وتدل قصيدة "توراة توراة، معك معك وتفاسير أخرى"، من ديوانه الأخير "مفتوح مغلق مفتوح"، على ذلك، وهنا بعض أبيات من القصيدة:

خذ ابنتك وحيدك الذي أحببت
وانذحه قرباناً، هذا ما قاله الرب لإبراهيم
ونحن نسميه أبانا إبراهيم. أي أب
هو لنا، والذي كان مستعداً للتضحية بابنه وذبحه!
وهناك أمر آخر، الرب لا يعرف محبة الأبناء
لكنه يعرف محبة الجبال
ومن بين جميع الجبال أحبّ جبل المورياه
جبل وحيد الذي أحبّ، لذلك اختاره
ليتم الذبح عليه ولبناء الهياكل المقدسة.

أما الموضوع الثاني فهو موقفه من حروب إسرائيل، وهنا أيضاً نجد ازدواجية وتناقضاً في شخصيته الشعرية، وصفهما الناقد موشيه دور بقوله إنه علماني ملحد يتوق إلى رب لا حول له ولا قوة، كما أنه وطني ومحارب يعلن أن أقصى أمانيه "أن يموت على فراشه" (ص ٢٣٩).

قصة عميحي كجندي محارب بدأت منذ أن تطوع في الجيش البريطاني في إبان الحرب العالمية الثانية، إذ كان في مصر وعمل على تهريب السلاح واليهود إلى فلسطين التي كانت تحت الانتداب البريطاني (ص ٨٥). لكن دوره كجندي حقيقي كان في حرب ١٩٤٨، وقد سجل يومياته فيها عبر رسائل أرسلها إلى حبيبته روث التي غادرت حيفا إلى الولايات المتحدة، وبقي عميحي يرسل إليها الرسائل على أمل أن تعود ويتزوجا. ونعرف من خلال الرسائل التي احتفظت بها حبيبته، أنه كان عضواً في "الهاغاناه" في حيفا، حيث شارك في تفجير بيوت عربية، كما شارك في وضع كمائن للسيارات العربية وإعدام من في داخلها رمياً بالرصاص، وبرز ذلك بأنها كانت تقل "رجال عصابات" على حد تعبيره (ص ١٠٧). وبناء على أقواله، فإن أهم معركة خاضها في حياته دارت حول قرية أسدود الفلسطينية في الجنوب ضد الجيش المصري. وكانت المعركة مهمة بالنسبة إليه إلى درجة أنه

حين سُئل في أحد الأيام عن العبارة التي يريدها أن تُنقش على شاهدة قبره، أجاب فوراً أنه مثلما نُقشت على شاهدة قبر إسخيلوس عبارة أنه شارك في حرب ماراتون، فإنه يريد أن يُنقش على شاهدة قبره أنه شارك في معركة أسدود (ص ١٢٠).

يقول كاتب السيرة إن عميحي خرج من حرب ١٩٤٨ معطوباً نفسياً، بل إن بعض أعماله الشعرية يثير الانطباع بأنه كان مصاباً، بهذه الدرجة أو تلك، بصدمة نفسية جرّاء الحرب (ص ١٣٥). ومع ذلك كان من المهم له طوال حياته أن يشدد على ماضيه العسكري، فقد أحب أن يتحدث عن إصابته الطفيفة في حرب ١٩٤٨، بل جعل كل مَنْ يقدمه أمام الجمهور في مختلف المحافل، وخصوصاً في الولايات المتحدة وألمانيا، يشير إلى أنه شارك في ٥ أو ٦ حروب، فضلاً عن نعته بأنه جندي ومحارب وشاعر (ص ١٣٥).

ثمة سيرة أخرى عن عميحي، وضعتها شانا كرونفيلد (Chana Kronfeld)، أستاذة اللغة العبرية والأدب المقارن في جامعة بيركلي في كاليفورنيا في الولايات المتحدة، إلا إن بسوك ينتقد واضحة تلك السيرة ويتهمها بأنها كانت متطرفة في تسييس شعر عميحي، وإظهاره كأنه يتعاطف مع الفلسطينيين الذين طُردوا من بيوتهم، ويقول إن التفسير السياسي لبعض قصائد عميحي مبني على تجاهل التعقيد، بل حتى "الازدواجية" في موقفه من حروب إسرائيل، ومن ضمنها حرب ١٩٤٨. وبالتالي لا يمكن اعتبار عميحي مجرد "داعية سلام" أو "يساري"، إذ بما أنه مواطن في الدولة، وبما أنه رأى أيضاً من الضروري إقامة دولة لليهود، فإنه تماهى مع حروبها "الدفاعية"، لكنه أيضاً تألم من الواقع البشري الذي يضطر الانسان إلى التضحية بالشباب كرمي لإله الحرب (ص ٢١٣).

في هذا المجال، أميل إلى رأي بسوك، إذ حين سألت فتاة عميحي، خلال برنامج تلفزيوني، عن غربته والإحساس بعدم انتمائه عند الحديث عن حروب إسرائيل، أوضح لها الفرق بين موقفه كإسرائيلي وكيهودي يعيش في الدولة، ويتقبل ضرورة الدفاع عنها، وبين موقفه كإنسان وكمخلوق بشري لا يمكن له أن يتقبل هذا الهدر الفظيع لحياة البشر في أي حرب كانت (هامش ١١٣). وكنموذج لقصائد لا تُحصى يتحدث أو يذكر فيها الحرب، ها أنا أوردُ القصيدة التالية وهي بعنوان "أقسم بحياتي. أقسم بحياتي" (من ديوانه الأخير "مفتوح مغلق مفتوح"):

ثلاث مرات شعرت بتشنجات فظيعة في ساقِي
عندما انسحبنا في رمال أسدود، بين القذائف المتفجرة
وفي البحر في قيسارية، عندما سبحت بعيداً عن الشاطئ
وفي الفراش مع امرأة في علاقة غرامية في إحدى ليالي الصيف
ثلاث مرات كانت ساقِي صلبة كالحجر
والقلب ليّن من الخوف، والقلب ليّن من الحب،
ثلاث مرات ظننت فيها أن موتي وشيك،
وساقِي ثقيلة كشاهدة قبر في جسدي لجسدي.
لكني واصلت القتال، وواصلت الحب
وواصلت السباحة. أقسم بحياتي. أقسم بحياتي.

عندما اجتاحت إسرائيل لبنان في سنة ١٩٨٢ اعتقد عميحي أن الفرصة سانحة لحل القضية الفلسطينية، وبعد أسبوع من دخول القوات الإسرائيلية إلى لبنان، نشر مقالة دعا فيها إلى استغلال الفرصة والوضع الجديد المترتب عليها لإقامة كيان فلسطيني في الضفة وفي الأردن وفي الجنوب اللبناني. ومع مرور الوقت أصبح من أشد المعارضين لاستمرار الحرب التي شملت بقاء قوات إسرائيلية على الأراضي اللبنانية (ص ٣٠٠). وفي حزيران/يونيو ١٩٨٥ شارك في احتشاد جماهيري ضد بقاء القوات الإسرائيلية في لبنان، وقال في مقابلة صحافية أنه على الرغم من اعتراضه على استمرار الحرب، فإنه لا يتراجع عما ورد في مقالته "الفرصة سانحة" التي نُشرت في مستهل الحرب. وقال بالحرف الواحد: "كان هناك بارقة أمل [لو طُبِّق ما تم اقتراحه] بأن نتخلص من لعنة الفلسطينيين، ويتخلص الفلسطينيون من لعنتنا" (ص ٣٠٠).

غير أن عميحي يبدو في قصائده كأنه يلعب على الحبلين، أو بلغة أرقى يعاني ازدواجية في موضوع الحروب التي تشنها إسرائيل على الفلسطينيين والعرب. وفي سياق متصل كان بسوك قد أورد أن عميحي رأى في التراث اليهودي، وفي إقامة دولة إسرائيل، مؤشرين يدلان على وجود غريزة حياة كبيرة لدى الشعب اليهودي، بينما كان الآباء في المنافي يعانون غريزة موت متضخمة بفعل المجازر وحملات الإبادة (ص ٢٥٩). لكنني لا أعتقد أن الوضع تغير، فغريزة الموت المتضخمة قائمة لدى الشعب اليهودي، أما الذي تغير فهو وجهتها، إذ بعد أن كانت موجهة إلى الداخل بسبب عامل خارجي قام، أصبحت موجهة ضد خارج مقموم هو الشعب الفلسطيني. فالحرب أكبر مؤشر إلى وجود غريزة الموت، وعميحي بدوره يورث ابنه هذه الغريزة، فها هو في قصيدة بعنوان "ابني يتجند" يخلط بين غريزتي الموت والحياة:

لقد تجند ابني للجيش. أحضرناه إلى المحطة مع بقية الفتيان
الآن انضم وجهه إلى سائر الوجوه التي تغادرني
في نوافذ الباصات والقطارات العابرة في حياتي
وجوه في المطر المنهمر، أو منبهرة العيون بفعل الشمس.
ها هو وجهه أيضاً في جانب النافذة، كطوابع البريد في الرسائل
[...]

أريد أن يكون ابني جندياً في الجيش الإيطالي
مزينا ببعض الريش الملون على قبعته
يركض فرحاً، من دون أعداء، ومن دون تمويه.

عندما يتجند الابن فهذا يفترض مشاركته في حرب مستقبلية، لكن عميحي يحاول، بأناقة يُحسد عليها، أن يتملص من هذه الحرب "متمنياً" أن تكون مشاركة ابنه فيها شكلية، وأن يكون جندياً في حرب وهمية بلا أعداء. لكن تبقى الحرب - أو بعبارة أخرى "غريزة الموت" - هي الثيمة الأساسية التي يتوارثها الأبناء عن الآباء. ■